الفصل الرابع
النحو ومعاجم اللغة

ف ٦٠: أوائل النحويين الأندلسيين، الزبيدي، أبو علي الشلوبيني، ابن مالك، أبو حيَّان.

ف ٦١: معاجم اللغة.

obeikandl.com

obeikandl.com

ف٦٠- أوائل النحويين الأندلسيين، الزبيدي، أبو علي الشلوبيني، ابن مالك، أبو حيان

كان الناس أول الأمر يدرسون اللغة في الأندلس عن طريق قراءة النصوص الأدبية والكتب، دون استعمال كتب خاصة في النحو، ثم عرفوا بعد ذلك كتبه. وأول ما ذاع بينهم من كتب الكسائي (المتوَفَّى سنة ٨٠٤/١٨٨) وسيبويه، ثم ظهر من بينهم مَن ألّف في هذا الباب كتبًا مثل جودي بن عثمان النحوي العبسي المورورى (المتوفى سنة ٨١٣/١٩٨). وكان أولَ من أدخل الأندلسَ كتابَ الكسائي، ثم وضع بعد ذلك كتبًا في النحو مثل «مُنْيه الحجارة»[١].

ومن أوائل من ألّف في النحو في الأندلس أبو علي القالي (ف ٥٥) الذي ألف رسالة عن «المقصور والممدود»، ورسالة أخرى عن الأفعال عنوانها «فعلت وأفعلت». وكذلك كتاب «البارع في اللغة» وقد سبقت الإشارة إليه، وهو موسوعة لغوية رتب فصولها على أحرف الهجاء وكان يقع في خمسة آلاف ورقة[٢] وهناك أيضًا « كتاب الأفعال في اللغة» لأبي بكر ابن القوطية (نشره جويدي سنة ١٨٩٤)، وقد شرحه وعلق عليه ابن طريف مولى بني عبيد المتوفى سنة ١٠٠٩/٣٩٩[٣].

وكانت أذيع كتب النحو على أيام ابن حزم «تفسيرُ الحوفي لكتاب الكسائي»[٤]، وكتابان لابن سيدَه المرسي الضرير (أبي الحسن على بن إسماعيل المتوفى سنة ١٠٦٥/٤٥٨): أولهما «كتاب العالم والمتعلم»، والثاني «شرح» له لكتاب الأخفش[٥]، (ويغلب أن الأخفش هو علي بن فضل الذي توفي في بغداد حوالي سنة ٩٢٧/٣١٤).

وقد أشرنا فيما سبق إلى أهمية كتب النحو التي ألفها أبو محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي (ف ١٢) مؤدب الخليفة هشام المؤيد في صباه، ونضيف الآن أن

الزبيدي كان - كما يقول خليان ريبيرا - «يحاول بدراسته أن ينقي كتب الأدب مما يتطرق إليها من الألفاظ العامية، ويُرشد الأندلسيين إلى ما ينبغي من العربي الصحيح»[٦]. وقد قام أبو الحجاج يوسف بن عيسى (توفي سنة ٤٧٥/١٠٨٣) بشرح ما في كتاب سيبويه من الشعر ونقَد نحوَه. وكان الأعلم البطليوسي يسمى بالنحوي، وقد وضع شرحًا «لجمل» الزجاجي ولكتاب «الحماسة»، وألف عددًا من الكتب الجيدة في النحو[٧].

ويطنب أصحاب كتب التراجم في الكلام عن غزارة علم أبي الوليد هشام بن أحمد الكناني الوقّشي الطليطلي (٤٠٧ - ٤٨٨/١٠١٧ - ١٠٩٥) في النحو واطلاعه على المعاجم وتحققه بطائفة من العلوم الأخرى، وأصله من وَقّش[٨]. ويقولون : إن أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري المعروف بابن الباذش الغرناطي (٤٩١ - ٥٤٠/١٠٩٧ - ١١٤٥) كان يعد نفسه واحدًا من أعلام النحو الثلاثة في عصره[٩].

ويُعتبر أبو الحسن علي بن محمد الحضرمي المعروف بابن خروف الإشبيلي[١٠] المتوفى سنة ٦٠٢/١٢١٢ صاحب الشروح المعروفة عن سيبويه والزجاجي وعيسى بن سليمان بن عبد الملك الرعيني الرندي (ويكنى أبا محمد، توفي سنة ٦١٥/١٢١٩، وكان مالقيّ الدار)[١١]، وأبو الحسن بن عصفور الإشبيلي[١٢] (المتوفى سنة ٦٦٢/ ١٢٦٤) أعلامَ النحو في عصرهم، إلى جانب أبي علي عمر الأزدي الشلّوبيني (نسبة إلى حصن شلو بينية على ساحل غرناطة، ٥٦١ - ٦٤٤/١١٦٦ - ١٢٤٧).

والشلوبيني من أهل إشبيلية، وقد أخذ النحو والبلاغة عن أبي إسحاق بن ملكون، واشتغل سنوات طويلة بتدريس اللغة العربية، ووضع شرحًا «للجزولية» التي ألفها أبو موسى بن عيسى الجزولي، وكتابًا آخر يسمى «التوطئة»، وقد أدرك بكتابيه هذين شهرة واسعة ومكانة ممتازة بين المعنيّين بالشروح النحوية[١٣].

وأوسعُ علماء العرب شهرة في النحو هو ابن مالك (جمال الدين محمد بن عبد الله، ٦٠٠ - ١٢٠٨/٦٧٢ - ١٢٧٤)، ولا زالت تواليفه في النحو تُتَدَارَس إلى اليوم. وُلِد ابن مالك في جَيّان ودرس في الأندلس، ثم خرج إلى المشرق واشتغل بتدريس النحو في حلب وحماه ودمشق؛ حتى أخر أيامه، ومن بين مؤلفاته الكبيرة «الكافية الشافية»، وهي كتاب منظوم في النحو يقع في ثلاثة آلاف بيت من بحر الرجز، و «الألفية» وهي مختصرة الكافية[١٤]، وتقع في ألف بيت، وقد نشرها سيلفستر دي ساسي مع شرح وتعليق فرنسيين في سنة ١٨٣٣، ونقلها إلى الفرنسية بعد ذلك بنْتُو Pinto في سنة ١٨٨٧، وجوجوييه Goguyer في سنة ١٨٨٨، ووضع علماء المسلمين فيما بعد شروحًا كثيرة على ألفية ابن مالك. وقد قدم ابن مالك بها خدمة جليلة لدارسي النحو العربي على الرغم من قدح خصومه في عمله، فقد نسَّق قواعده وبسَّط معلوماته، وإن كان يؤخذ عليه غموض وعدم وضوح في بعض المواضع مما لا ينبغي أن يقع في مؤلَّف تعليمي[١٥].

ويعتبر ابن السِّيد البطليوسي (أبو محمد عبد الله بن محمد، ٤٤٤ - ٥٢١/ ١٠٥٢ - ١١٢٧) وعبد العزيز بن الطراوة[١٧] وأبو القاسم السهيلي[١٨] (توفي سنة ٥٨٣/ ١١٨٧) من أصحاب الكتب الذائعة في النحو مثل «الروض الأُنُف» لهذا الأخير. وعندما استولى النصارى على غرناطة غادرها نفر ممن كان بها من علماء النحو واستقروا في مراكش، فأصبحت بفضلهم مركزًا من مراكز دراسته، أما أثير الدين أبو حيَّان محمد بن يوسف بن النفزي الأثري الغرناطي (٦٥٤ - ١٢٥٧/٧٤٥ - ١٣٤٤) فقد توجه إلى المشرق حاملاً إلى أهله ثروة حافلة من النحو والصرف، فرد بذلك إليهم - مزيدًا - ما أسلفوه للأندلس من العلم في هذه الناحية في القرون السابقة.

درس أبو حيَّان في غرناطة ومالقة، وكان يلقب «بشيخ النحاة»[١٩] «لعلمه الغزير

في هذا الباب. وكان إلى جانب ذلك واسع المعرفة بفروع أخرى من العلوم الإسلامية، كالتفسير والحديث والشروط والفروع وتراجم الناس وطبقاتهم» وغير ذلك[٢٠].

وقد بارح أبو حيّان الأندلس في سنة ١٢٨٠/٦٧٨، وطاف بنواحي المغرب ومصر ووصل إلى الحبشة ثم حج إلى بيت الله الحرام، وتوجه بعد ذلك إلى الشام، وانتهى به المطاف آخر الأمر في القاهرة.

وقد أتقن اللغات الفارسية والتركية والحبشية، وأبدى في القاهرة نشاطًا عظيمًا، وخلف شيخه محمد بن النحاس في أستاذية النحو، وكان شيخ المحدثين بالمدرسة المنصورية في القاهرة، وكان يقرأ القرآن في المسجد. وكان متين الخلق، حسن العشرة، ذكيًا صاحب أفكار مبتكرة وفكاهة مستحبة. وكان إلى جانب ذلك كله يقول الشعر، وبعض أشعاره ينم عن تشاؤم، كقوله ناظمًا معنى حكمة لعلي بن أبي طالب:

إذا وُضع الإحسان في الخبِّ لم يُفِدْ ... سوى كُفرِه، والحر يجزي به شكرا

كفيتُ سقى أفعى فجاءت بسمِّها ... وصاحَبَ أصدافًا فأظهرت الدُّرّا[٢١](*)

وكان يعيش عيشة تقشف ويقول: «يكفي الفقير في مصر أربعة أفلس: يشتري له بايتة بفلسين، وبفلس زبيبًا، وبفلس كوز ماء، ويشتري ثاني يوم ليمونًا يأكل به الخبز»، وكان يعيب على مشتري الكتب ويقول: «الله يرزقك عقلاً تعيش به! أنا، أيُّ كتاب أردته استعرته من خزائن الأوقاف، وإذا أردت من أحد أن يعيرني دراهم لم أجد ذلك». وأنشد لنفسه:

(*) المقري: نفح، جـ١، ص ٨٦٠ - ٨٦١. ولم أجد في الأصل لأبي حيان غير هذين البيتين، وإن كان بالنثيا يستطرد في ترجمة أبيات أخرى له لم أجدها في الأصل.

إن الدراهـــم والنســـاء كلاهمـــا لا تأمـــننَّ علـــيهما إنســـانا

يـــنزعن ذا اللـــب المـــتين مـــن التـــقى فـــترى إســـاءة فعلـــه إحســـانا[٣٢]

ولم يبق لنا من كتب أبي حيَّان إلا كتابان - على الرغم من أن من ترجموا له يقولون: إنه وضع خمسين مؤلَّفًا - الأول في التفسير وهو مخطوط بمكتبة لايدن، والثاني في النحو عنوانه «فضل النحو» مخطوط في مكتبة برلين. وقد ألّف أبو حيَّان كذلك في نحو الفارسية والتركية[٣٣].

ف ٦١ - معاجم اللغة

وكان فن تصنيف المعاجم يتطور في الأندلس جنبًا إلى جنب مع دراسات النحو. وكانت طلائع مؤلفات الأندلسيِّين في هذا الباب مختصرات لمعاجم شرقية، ومثال ذلك كتاب «نوادر اللغة» الذي وضعه أبو علي القالي (ف ٥٥)، فهو أشبه بشرح لما ورد في «الكامل» لأبي العباس المبرد من الغريب، وكذلك وضع الزبيدي (ف ١٢ و٦٠) مختصرًا «لكتاب العين» للخليل بن أحمد، وقد ذاع هذا المختصر وأصبح معتمد الناس في الدراسة في الأندلس، ولا توجد مخطوطات الآن إلا في مكتبات الأندلس[٣٤]. و «مختصر كتاب العين» مبوَّب بحسب مخارج الحروف، وهو يبدأ بالحروف الحلقية وأولها «العين»، وينتهي بالشفوية والمقفلة (أنصاف حروف العلة)[٣٥].

ومن المعاجم الجليلة التي ألّفها الأندلسيون في اللغة «كتاب العالم» الذي وضعه محمد إبان بن سيد اللخمي (المتوفى سنة ٣٥٤/٩٩٣)؛ وقد قال في شأنه ابن حزم أنه: «نحو مائة سفر على الأجناس، في غاية الإيعاب، بدأ بالفلك وختم بالذرة»[٣٦].

وقد نهج مؤلف مشرقي هو سعيد الرياعي (المتوفى سنة ٤١٦/١٠٢٦) نهج القالي وابن أبان في تأليفه «كتاب اللآلئ».

ويقول ابن حزم : إنَّ أحسن تأليف وضع في علوم اللغة، وأوفرها مادة وأصحها

نصوصًا، هو كتاب معاصره أبي غالب تمام بن غالب الملقب بابن التَّيّاني[٣٧]، وكان أديبًا ذا أنفة واعتزاز بما أدرك من شهرة؛ حتى لقد أنف من أن يزيد في ترجمة كتابه المذكور عبارة: «مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد» صاحب دانية، وكان هذا الأخير قد وجه إليه ألف دينار أندلسية، «فرد الدنانير وأبى من ذلك ولم يفتح في ذلك بابًا ألبتة وقال: والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب، لأني لم أجمعه له بل لكل طالب»[٣٨].

وقد ألّف أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحجاري (المتوفى سنة ٤٨٩/١٠٩٦) كتابًا عن المعاجم، وتحدث فيه عنها في إسهاب. ويكاد أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده أن يكون أكبر أصحاب المعاجم الأندلسيين، وكان رجلاً ضريرًا من أهل مرسية. وقد درس على أبيه - وكان ضريرًا أيضًا - وعلى صاعد البغدادي وأبي عمر الطلمنكي، ثم دخل في خدمة مجاهد صاحب دانية. وقد وضع مؤلفات كثيرة بقي لنا منها شرح لديوان المتنبي ومعجمان: الأول هو «المخصص في اللغة» وقد رتَّب ألفاظه بحسب الموضوعات المتقاربة، والثاني هو «المحكم والمحيط الأعظم» في اللغة، وهو معجم أبجدي يبدأ بالعين، وقد سار في وضعه على نهج يقارب نهج الخليل في كتاب العين[٣٩].